مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) / ج وهران02/ المجلد 09 ع 03 / 16 /06/ 2020
ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

بنية العلم من منظور فلسفة علم ما بعد الوضعية

The structure of science from the perspective of post-positivism science

د. بوصالحيح حمدان Dr. Bousalhih Hamdane bousalhihh@yahoo.fr	فلسفة	مختبر الأبعاد القيمية للتحولات السياسية والفكرية/ جامعة وهران2. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة زيان عاشور. الجلفة. الجزائر

DOI : 10.46315/1714-009-003-021

الإرسال2020/02/27 القبول: 2020/03/18 النشر: 2020/06/16

ملخص:

لقد شكل الاهتمام بالبنية الداخلية للعلم الركن الأساس لفلسفة العلم الكلاسيكية، خاصة مع النزعة الوضعية، التي حصرت المعرفة العلمية في حدود التجربة، وصورية الفكر، وقواعد اللغة، لقد كان هدف المشروع الوضعي وبوحي من روح الحداثة بناء نسق علمي متماسك يتلاشى فيه كل ما يخرج عن دائرة المنطق واللغة والمعطى التجريبي، ولا مجال فيه لأية مقولة خارج نطاق الإطار الابيستمولوجي، لكن هذا المشروع قد تعرض لأوجه نقد شديدة، من قبل الاتجاهات الجديدة التي ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين، والتي أصبحت تعرف باتجاهات "ما بعد الوضعية "حيث تحول اهتمام فلسفة العلم المعاصرة من التركيز على البنية الداخلية للعلم، إلى الاهتمام بالبنية الخارجية للعلم واعتبار العلم ظاهرة اجتماعية ونشاط إنساني يتأثر بالأبعاد الاجتماعية والإنسانية ويؤثر فيها.

كلمات مفتاحية: فلسفة العلم؛ ما بعد الوضعية؛ المنهج العلمي؛ أبستمولوجيا؛ نظرية العلم.

Abstract:

The interest of the inner structure of science is the fundamental pillar of the classical philosophy of science especially with positivism which has limited the scientific knowledge only in the experience, the formal thought and the grammar. The positive project aims to build a coherent scientific system that everything outside of the logic language and experimental data goes away. And there is no room for any category outside of the epistemological field; however, this project has been opposed by the new attitudes in the second half of the twentieth century that became known as (post-positivism). Whereupon the attention of the contemporary philosophy of science shifted from focusing on the inner structure of the science to the external structure of science and considering science as social phenomena and as a humanistic activity that affects on social and human dimensions and is influenced by them in the same time.

Keywords: Philosophy of science; post-positivism; science; epistemology; scientific method.

- مقدمة:

لقد ارتبط البحث في فلسفة العلم الكلاسيكية وحتى بداية النصف الأخير من القرن الماضي بمسائل الصدق والصواب والدقة واليقين وموضوعية الحقائق والنظريات العلمية، وبالمنهج

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

العلمي الصحيح الموصل إلى هذه الحقيقة العلمية، وبالقواعد والمعايير العقلانية التي يمكن على أساسها التمييز بين العلم واللا علم، وبين العلم والأنماط المعرفية الأخرى، وبمعايير المفاضلة بين الفروض والنظريات العلمية المتنافسة، وقد شكل الاهتمام بالبنية الداخلية للعلم الركن الأساس لفلسفة العلم الكلاسيكية، خاصة عند النزعة الوضعية والوضعية المنطقية بالخصوص، لكن التطورات التي شهدها الفكر العلمي المعاصر على اثر الثورات العلمية المتتالية التي تحققت في مجال الرياضيات، والفيزياء النظرية،.قد أحدثت (هذه التطورات) تغييرات جذرية في أبستمولوجيا العلم المعاصر حيث تحول الاهتمام من دراسة التركيب المنطقي للمعرفة العلمية، إلى دراسة العلم في نموه وتفاعله مع عوامل ونشاطات معرفية وإنسانية، ومع بنيات حضارية وإنسانية واجتماعية كالتاريخ، والأكسيولوجيا، والثقافة والدين، والأيديولوجيا، وقد أدى هذا التحول في التحليلات الإبستمولوجية للفاعلية العلمية إلى طرح إشكاليات تتعلق بعلاقة العلم بالمعارف الإنسانية الأخرى، وبمعايير التمييز بين العلم واللاعلم، فهل العلم مشروع يقوم على قواعد وأسس عقلانية كالموضوعية والصدق والمنهج والنظام، والاتساق المنطقي كما حده الاتجاه الوضعي والوضعي المنطقي؟ أم أنه ظاهرة اجتماعية، ونشاط إنساني وحضاري متطور، تتداخل فيه عناصر وعوامل نفسية واجتماعية وثقافية وقيمية؟

ولما كانت طبيعة موضوع البحث تفرض طبيعة المنهج المتبع، فإنني عمدت إلى استخدام المنهج التحليلي النقدي في دراسة المفاهيم والتصورات التي قامت عليها مختلف النزعات الإبستمولوجية محل الدراسة، كما استخدمت المنهج النقدي المقارن في دراسة مختلف المقاربات الإبستمولوجية والميتودولوجية المناهضة للتصور الوضعي المنطقي.

2 - العرض:

الوضعية المنطقية وثنائية العلم /القيم:

ترجع بداية الفصل بين الواقع(العلم) والقيم إلى نشأة العلم الحديث الذي أسس للقطيعة بين المعرفة العلمية والأفكار اللاهوتية والمعتقدات والنصوص الدينية التي سيطرت على الفكر القروسطي خاصة في الغرب المسيحي، فقد أصبح العلم هو النموذج العقلاني الوحيد للوصول إلى المعرفة الحقيقية، ومن هنا بدأ التأسيس لمفهوم العقلانية العلمية، ولمفهوم الموضوعية والمنهج العلمي، والصدق، واليقين، كشروط أساسية لتمييز العلم عن اللاعلم، وعن غيره من النشاطات المعرفية الأخرى، وقد بدأت عملية الفصل بين القيمة والواقع مع " **فرانسيس بيكون**" -1561) (1626 و"غاليلي" (1564-1643)، فأوهام العقل عند بيكون (أوهام المسرح ، والجنس أو القبيلة، والكهف، والسوق) هي دعوة صريحة إلى فصل وإبعاد المعايير القيمة والدينية والأخلاقية، وكل الأفكار الميتافيزيقية داخل العلم، وقد كانت آراء "غاليلي" أبلغ تعبير عن الفصل بين القيم

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

والواقع، وعن التأسيس لعقلانية تسعى إلى تحرير العلم من الرأي والظن والحكم المسبق، وتخليصه من سلطة التفكير اللاهوتي والديني فأساس العلم الطبيعي عنده هو الرياضيات، لأن كتاب الطبيعة لا يمكن قراءته إلا من منظور رياضي، وهدف العلم ليس وصف الطبيعة، بل تحويلها إلى صيغ رياضية تتخذ صور قوانين رياضية طابعها الدقة واليقين والوضوح.

وقد اكتمل هذا التصور القائم على فصل القيم عن العلم والواقع مع التصور الميكانيكي الآلي للطبيعة الذي أرسى دعائمه"إسحاق نيوتن"(1643-1727)، فكل ما يحدث في الطبيعة من ظواهر ناتج عن علل وأسباب ميكانيكية وغاية العلم معرفتها وحسابها بدقة، فلم يعد الأمر كما يرى "سالم يفوت" (1989، 22)، يتعلق سوى بكتل تتحرك حسب قوانين رياضية"، ولهذا كان الاهتمام بالمنهج العلمي والموضوعية والدقة من المهام الأساسية للعلم، وقد اتخذ هذا التصور طابعا مميزا مع الاتجاه الوضعي والوضعية المنطقية على وجه الخصوص.

تعد حركة الوضعية المنطقية من أبرز الحركات الفلسفية المعاصرة إن لم تكن أبرزها على الإطلاق، فهي أهم توجه فلسفي للفكر العلمي في النصف الأول من القرن العشرين، بل كانت تعد ـ وحتى بداية النصف الثاني من القرن العشرين ـ الممثل الشرعي لفلسفة العلم، وبدون منافس.

تقوم نظرية العلم في تصور الوضعية المنطقية على جملة من المبادئ الصارمة التي ينتظم في إطارها مشروعها الفلسفي بكامله، ومن أهم هذه المبادئ:

.نظرية المعنى:

تعد نظرية المعنى بمثابة العقيدة الخاصة التي قامت عليها فلسفة الوضعية المنطقية وقد كانت سببا في إثارة الجدل بين التيارات الفلسفية المعاصرة، لما تمتلكه من صرامة في الإطاحة بمجمل الصرح الميتافيزيقي في عموم المشروع الفلسفي، وتقوم هذه النظرية على أساس تقسيم القضايا إلى: قضايا **ذات معنى**، وقضايا **خالية من المعنى**، وتنقسم القضايا ذات المعنى إلى **قضايا تحليلية**، (قضايا المنطق والرياضيات) وهي القضايا التي لا يضيف فيها الفكر شيئا جديدا إلى معلوماته، فهي قضايا تكرارية وتحصيل حاصل، وقضايا يقينية صادقة ومعيار صدقها هو الاتفاق المنطقي ومراعاة مبادئ العقل الأساسية، والنوع الثاني من القضايا ذات المعنى يتمثل في قضايا العالم التجريبي، وهي **قضايا تركيبية** بعدية تمتلك قيمة إخبارية عن الواقع، ومصدرها التجربة والواقع، وصدقها غير بديهي وغير عقلي، بل هو واقعي حسي وظني، فالقضية فيما يرى "زكي نجيب محمود" (1958، 188) إما أن تكون تركيبية وبالتالي، فهي اختيارية واحتمالية، أو تكون تحليلية وبالتالي فهي تكرارية صورية ثم يقينية، ومن هذا الصنف قضايا الرياضيات والمنطق التي تتسم بالصورية الخالصة لأنها ألفاظ ورموز، وليس لها مضمون حسي، وانطلاقا من هذا التمييز بين القضايا ذات

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

المعنى، والقضايا الخالية من المعنى أنكرت الوضعية المنطقية قضايا الميتافيزيقا باعتبار أنها ليست قضايا تحصيل حاصل، ولا قضايا تجريبية، وبالتالي فهي قضايا خالية من المعنى .

ونشير في هذا السياق إلى أن هذا الموقف الرافض للميتافيزيقا ليس سبقا للوضعية المنطقية فقد سبق لـ"**د. هيوم** *D. Hume* أن وصفها بالسفسطة والوهم، حيث يقول: « إذا أخذنا في أيدينا مجلدا في اللاهوت أو الميتافيزيقا المدرسية على سبيل المثال دعونا نتساءل، هل يحتوي على أي تفكير مجرد يتعلق بالكم والعدد؟ كلا، هل يحتوي على أي تفكير تجريبي تعلق بشؤون الواقع والوجود؟ كلا، فلنلق به إذن في اللهب فليس بمقدوره أن يحتوي سوى الترهات والأوهام » (جي، آ، د ت، 30).

كما أن التفكير الميتافيزيقي عند **أوجست كونت**"(Auguste Comte) لا يمثل إلا مرحلة من مراحل الفكر التي ينبغي أن يتم تجاوزها إلى المرحلة الوضعية، وذهب "**ماخ**"(*Mach*)" إلى ضرورة إزالة كل العناصر الميتافيزيقية من العلم، ويذهب "زكي نجيب محمود" (1987،51) إلى أنه على الرغم من هذا الرفض المبكر للميتافيزيقا باعتبار طابعها اللاعلمي، إلا أن التجريبيين المنطقيين قد أقاموا رفضهم لها بناء على أن قضاياها خالية من المعنى، بل هي مجرد لغو، فهي قضايا ليست صادقة ولا كاذبة، بل هي جميعا لا معنى لها.

إن رفض التجريبية المنطقية للميتافيزيقيا لا يرجع إلى عجز الإنسان عن تجاوز حدود الواقع والتجربة الحسية إلى ما وراءها، بل لأن القضايا الميتافيزيقية تزعم أنها ترمز إلى الشيء خارج حدود الواقع الخارجي، وخارج حدود العلاقات المنطقية الصورية، لهذا تبقى قضايا فارغة أو خالية من المعنى لا يمكن التحقق من صحتها أو كذبها، ولا يمكن إيجاد أجوبة لها، وصعوبة إيجاد الأجوبة ليست عملية، بل هي صعوبة منطقية ومبدئية، طالما أن منطق التحليل يلزم أن تكون الألفاظ والعبارات تشير إلى وقائع موجودة فعلا، وفي هذا السياق يشير "**كارناب**" (Carnap) إلى "أن معارضة الميتافيزيقا طوال تاريخ الفلسفة لم تكن تعطي بديلا، أو تقترح حلا جديدا بل كل ما كانت تؤكد عليه هو القول بلا فعاليتها، دون أن تبرز الأسس المتناقضة التي تقوم عليها القضايا الميتافيزيقية"(يفوت،س،1982، 124).

.مبدأ القابلية للتحقق:

يعد مبدأ القابلية للتحقيق* أساس نظرية المعنى عند الوضعية المنطقة، فالجملة التي لا يمكن تحديد صحتها من ملاحظات ممكنة هي جملة لا معنى لها، فمعنى القضية هو طريقة تحقيقها وعلى الرغم من اختلاف تصورات أعضاء التجريبية المنطقية في تحديد هذا المبدأ، فمن التحقيق المباشر عند "**موريتس شليك** " الذي ينص على أن معنى القضية يتحدد بجملة الخبرات الحسية، والوقائع التجريبية التي يمكن الإشارة إليها مباشرة ، إلى التصور الذي قدمه **آيرAyer** والذي ميز

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

نوعين من التحقيق، التحقيق التجريبي أو الفعلي، والتحقيق من حيث المبدأ الى الصورة الجديدة التي قدمها "**كارناب** (كارناب،ر، 1993، 34 .35) والذي استبدل قابلية التحقيق بقابلية التأييد، أو درجة التأييد، ودرجة التأييد، هي ميل القضية إلى اليقين، وتحسب درجة تأييدها بالاستناد إلى **البيّنة**، وكلما كانت الشواهد أو البيانات التي تؤيد الفرص أكثر غنى وتنوعا كلما ازدادت درجة تأييد القضية، أقول رغم هذه الاختلافات إلا أن الوضعية المنطقية قد جعلت من **مبدأ التحقق** معيارا عقلانيا نميز به **المعنى عن اللامعنى، ومن ثمة النظرية العلمية عن غيرها**، متأثرة في ذلك بـ "فتجنشتاين (Wittgenstein)، الذي جعل القضايا الأولية للغة التي تمتلك معنى هي التي ترسم صورة لها في الواقع على هيئة واقعة ذرية، فإن وجدت هذه الواقعة الذرية في الواقع، كانت القضية الأولية ذات معنى وصادقة، وإن لم توجد تلك الواقعة الذرية، كانت القضية الأولية ذات معنى ولكن كاذبة.

المنهج الاستقرائي:

تعد التجريبية المنطقية ذات نزعة استقرائية، من حيث أنها أخذت بالمنطق الاستقرائي كسبيل للكشف العلمي وأضفت عليه طابعا استنباطيا ومنطقيا صارما، فالمنهج الاستقرائي هو المنهج الوحيد الصائب لإقامة المشروع العلمي، لأن التجربة الحسية أو الملاحظة هي مصدر المعرفة، وهو السبيل الوحيد للانتقال من التجربة الحسية إلى التعقل المجرد.

ويعبر"**ريشنباخ**" *(Reichenbach)* عن المبدأ بقوله "من الواضح أن العلم بدون هذا المبدأ سوف لن يكون لديه الحق في تمييز نظرياته عن خيال الشعراء الخلاق وإبداع عقولهم". (بوبر، ك، 1988، 65).

وبصرف النظر عما أثاره مبدأ الاستقراء من مشكلات معرفية ومنطقية، إلا أن منهج الاستقراء يعد في تصور الوضعية **المنطقية المنهج الذي يبرر موضوعية وعقلانية المعرفة العلمية**، وبناء لغة للعلم محكمة منطقيا، وهذا هو جوهر المشروع التجريبي المنطقي لإنتاج لغة علم محكمة وموحدة.

.تراكمية مسار المعرفة العلمية:

إن المعرفة العلمية في تصور التجريبية المنطقية هي حصيلة عمليات استقرائية متتالية تغني العملية اللاحقة العملية السابقة وتصححها أيضا."فكل حقيقة علمية في أي مرحلة من مراحل العلم، كان لها ما يبررها من وقائع تجريبية وفق الاستدلال الاستقرائي، فالمعرفة العلمية تبدأ بترجيحات أولية، نتوصل إليها من خلال ملاحظات معينة ونبقى مستعدين لوضع ترجيحات ثانوية فحين استجدت ملاحظات أخرى، تكون هذه الترجيحات الثانوية بتواصل مع الأولية "(ماهر، ع، 1985، 246).

مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) / ج وهران02/ المجلد 09 ع 03 / 16 /06/ 2020
ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

وعلى هذا الأساس تكون مسيرة العلم تراكمية في ديمومة مستمرة متصلة، وأن النسق العلمي عبارة عن منجز راهن تطّرد كشوفه وتتوالى، وبهذا لا تولي التجريبية المنطقية أي دور لتاريخ العلم في تفسير مسيرة العلم، واعتبرته مجرد سجل من الاستبعاد التدريجي للخرافة والأهواء، والخيال والأسطورة والدين وغيرها من العوائق الأخرى من أمام حركة التقدم العلمي الذي تراكم بجانب التزايد المستمر لتطور المعرفة، ويقوم هذا التصور التراكمي لتقدم العلم على **نظرية الرد** لـ "أرنست ناجل" Ernest Nagel، و**نظرية التفسير** لـ "كارل هامبل" Carl Hempel و "اوبنهايم" Paul Oppenheim (1885-1977)، "فالتقدم يعني احتواء النظريات العلمية الجديدة للنظريات القديمة، أو إمكان اشتقاق النظرية القديمة من النظرية الجديدة"(ماهر،ع،1985، 96)

لقد كان سعي هذا المشروع الوضعي إلى بناء نسق فلسفي وعلمي متماسك يتلاشى فيه كل ما يخرج عن دائرة المنطق واللغة والمعطى التجريبي من خيال، وحدس وقيم إنسانية، وحصر المعرفة العلمية في حدود التجربة، وصورية الفكر، وقواعد اللغة، انعكاسا وتعبيرا عن روح الحداثة التي تدعو إلى إعلاء قيم الموضوعية والعقلانية وتجاوز كل أشكال التفكير الديني واللاهوتي واعتبار العلم السبيل الوحيد لتحقيق التقدم والحرية الإنسانية ، لكن هذه النزعة التبريرية للمعرفة العلمية، وهذا التصور لطبيعة المعرفة العلمية، والتقدم العلمي قد تعرض لأوجه نقد شديدة، من قبل الاتجاهات الجديدة في فلسفة العلم في النصف الثاني من القرن العشرين، والتي أصبحت تعرف باتجاهات "ما بعد الوضعية المنطقية" ومن أبرز ممثليها "كارل بوبر" و"بول فييرابند" و"توماس كون" و"مايكل بولاني" و"لاري لودان" و"كوايين"

ـ فلسفة ما بعد الوضعية ونقد المعايير الإبستمولوجية والميتودولوجية لنظرية العلم:

لقد أدت التطورات التي شهدها الفكر العلمي المعاصر إلى تغيير اتجاه بوصلة فلسفة العلم المعاصرة من التركيز على البنية الداخلية للعلم، إلى الاهتمام بالنظرة الخارجية للعلم أي بوصفه نشاطا إنسانيا يتأثر بالأبعاد الاجتماعية والإنسانية ويؤثر فيها، وقد أدى هذا التحول إلى طرح إشكاليات لم تكن من اهتمامات فلسفة العلم الكلاسيكية، إشكاليات تتعلق بطبيعة العلاقة بين العلم والمجتمع، العلم والسياسة، العلم والدين، العلم والأسطورة، العلم والفن، العلم والقيم، العلم والأخلاق.

فلم تعد الموضوعية والدقة واليقين والاتساق المنطقي المعايير الأساسية للنظريات العلمية عند فلاسفة علم ما بعد الوضعية، بل أصبح قبول النظريات العلمية يتم أيضا على أساس القيم غير المعرفية، كالقيم السياسية والاجتماعية والدينية والجمالية والاعتقادات الشخصية، فلا وجود لواقع موضوعي، فالواقع لا يمكن إدراكه إلا من خلال نسق نظري معين، يقول: "بول فييرابند." (1924 ـ 1994): "النظريات العلمية ليست سوى طرق معينة في النظر إلى العالم، كما يقول

فيلسوف العلم وتبني هذه النظريات يؤثر على معتقداتنا وتوقعاتنا ومن ثم فهو يؤثر على خبرتنا وتصوراتنا للواقع"(Feyerabend, P,1981,45)، وحتى النتائج التي تكشف عنها التجربة المخبرية مثلا، لا يمكن أن تكون موضوعية بشكل تام، ذلك لأن عملية قراءة النتائج وتأويلها، تستند الى الخلفية الفكرية والثقافية للعالم/الملاحظ، ومن ثم فإن الموضوعية لم تتحقق حتى في أكثر العلوم ارتباطا بالواقع التجريبي الذي يعتبره التجريبيون معيارا ثابتا لأحكام موضوعية، فلا وجود لمعايير عقلانية وقواعد منهجية ثابتة يمكن الاعتماد عليها، بل يضل الأمر متاحا للأحكام الجمالية والذوقية والأحكام الميتافيزيقية المسبقة والرغبات الذاتية، يقول فيرابند :« النظرية التي يقترحها عالم ما، سوف تعتمد ليس فقط على الوقائع المتاحة له، وإنما على التقليد العلمي الذي يشارك فيه، والأدوات الرياضية التي يعرفها واتجاهاته الجمالية واقتراحات أصدقائه، وعلى عوامل أخرى تضرب بجذورها في عقل المنظر، وليس في الواقع» (Feyerabend, 1981,60)، ويرى "**مايكل بولاني**": (M.Polany(1976-1891 أن النظرية العلمية هي طريقة في النظر إلى العالم، ومن ثمة تختلف هذه النظرة من ملاحظ إلى أخر باختلاف التجارب الماضية وباختلاف خبرات وتوقعات ومعتقدات الملاحظ ذاته.

ونحن لا نرى العالم ـ حسب "**توماس كون**"، (كون، ت،171،1992) من خلال الخبرة الحسية وحدها، بل من خلال تصوراتنا وأفكارنا التي حددها النموذج الإرشادي السائد، فتغيرات النموذج الإرشادي "البراديغم" تجعل العلماء يشاهدون عالم أبحاثهم الخاصة بطريقة مختلفة عن ذلك العالم الذين كانوا ينتمون إليه من قبل.

وما دامت النظرية العلمية ترتبط بالوضعية التاريخية التي أفرزتها، وبالسياق الثقافي الذي نشأت فيه، وما دام هذا السياق نسبي ومتغير، فلا مجال للحديث عن "الصدق" و"الحق" و"الواقعية" و" الموضوعية"، وغيرها من المعايير التي يستند إليها الاتجاه الوضعي المنطقي.

ولم تعد لمسألة المنهج العلمي أهمية خاصة في فلسفة علم ما بعد الوضعية منذ أعلن "بول فييرابند" موت المنهج من خلال مؤلفه المشهور « ضد المنهج »، الذي بين فيه أن مسالة البحث في المنهج مسألة زائفة،«فالفكرة القائلة بأن العلم يمكن له، وينبغي له أن ينتظم وفقا لقواعد ثابتة وكلية، هي فكرة مثالية وفكرة مضرة بالعلم، لأنها تهمل الشروط التاريخية والثقافية والايديولوجية المعقدة التي تؤثر في عملية التحول العلمي، وتجعل المشروع العلمي أقل مرونة، وأكثر دوغماتية. ». (Feyerabend,1979,332).

فالعلم ـ حسب فييرابند ـ ليس نشاطا عقلانيا خالصا، تحكمه مجموعة من القواعد الميتودولوجية والمنطقية، فقد أثبت تاريخ العلم أن العوامل اللاعقلانية، كالخيال، والحدس، والعاطفة،

والأسطورة، لها دور كبير في تطوره، كما أن العلماء لم يتقيدوا دائما بهذه القواعد المنطقية والمنهجية.

ويرى "**مايكل بولاني**": أن التقيد بمنهج واحد، ووحيد من مناهج العلم، يؤدي إلى الحد من النشاط الديناميكي للمعرفة الإنسانية، فلا وجود حسب"بولاني" لإطار معرفي واحد يمكن وصفه بأنه عقلاني وموضوعي، فلكل عالم وجهة نظره الخاصة، وتطلعاته المعرفية وخلفيته المعرفية والإيديولوجية ومن ثم فالإبداع لا يأتي حسب "بولاني" عن طريق إتباع منهج محدد ثابت، ولا من الخبرة المباشرة للواقع التجريبي بل من خلال المشاعر والأحاسيس والتخمينات والحدوس والخيال والتعهدات الإنسانية.

بل أن مهمة فلسفة العلم لا تنحصر- فيما يرى "توماس كون" - في وصف وتحديد المناهج الصحيحة التي يسير عليها العلم، بل مهمة فلسفة العلم هي البحث في الأسس الفلسفية والأبعاد النفسية والسوسيولوجية التي بني عليها الكشف والتقدم العلمي كما مارسه العلماء من خلال تاريخ البحث العلمي ذاته لا عن طريق وصف المناهج والطرق التي لم يلتزم بها العلماء أصلا، فلا وجود لمنهج علمي شامل وكامل يستطيع أن يفسر حركية تطور العلم، فكثير من التحولات العلمية حصلت دون إتباع منهج بعينه.

- سياق الكشف وسياق التبريروالبعد الإنساني للعلم:

لقد وضعت مختلف المقاربات الإبستمولوجية التي عرفتها فلسفة العلم الكلاسيكية حدا فاصلا بين سياق الكشف العلمي الذي تتداخل فيه العوامل الذاتية، من إبداع المكتشف وإلهامه وخياله وحدسه، وسياق التبرير القائم على الموضوعية والقواعد المنطقية الصارمة فإذا كان الوضعيون يرون أن فلسفة العلم، تهتم بسياق التبرير على اعتبار أن سياق الكشف يفلت من التحليل المنطقي، وينبغي تركه لعلم النفس وعلم الاجتماع، فإن فلاسفة علم ما بعد الوضعية يرون أن الممارسة الفعلية للعلم تقتضي رفض التمييز الفاصل بين السياقين يقول فييرابند: « إن الكشف العلمي لا يمكن أن يكون مجرد خبط عشواء أو حلم أو تخمين، وإنما يدخل فيه الكثير من عناصر الاستدلال، كما أن التبرير لا يكون أبدا "موضوعيا" تماما، فهو يحتوي على العديد من العناصر الذاتية... فالعوامل السيكولوجية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي تؤلف سياق الكشف، هي نفسها العوامل التي تدفعنا في الكثير من الحالات إلى التمسك بالنظريات الجديدة أمام قواعد المنطق الصارمة وقوالب العقل الجامدة" (عوض،ع،200، 94).

ويرجع التمييز بين سياق الكشف وسياق التبرير، وبين العلم والقيم الذي سلمت به بعض التوجهات الإبستمولوجية وخصوصا "الوضعية المنطقية إلى ذلك الاعتقاد الراسخ الذي يجعل من المنطق المعيار الفاصل بين العلم المتماسك القائم على الموضوعية والدقة والاتساق، وبين

الأفكار والمعارف غير العلمية، وهو اعتقاد زائف، ذالك لأن التجربة واللغة المنطقية لا يمكن أن تكون معيارا لتشريح المفاهيم بدقة تامة وتصنيفها إلى علمية /لا علمية ميتافيزيقية، دينية، فكل المفاهيم قد تعرف تحولات دلالية يصعب معرفة مداها بدقة واضحة، يقول "بناصر البعزاتي": "المفاهيم العلمية لا تنشأ من فراغ، بل تتبلور في نسيج ثقافي له أبعاد تاريخية ولا يوجد مفهوم واحد يمكن أن يقال عنه أنه علمي خالص، فمفاهيم "الذرة" و"القوة" و"السببية" و"الكتلة"، مفاهيم مشحونة بمضامين عقائدية وفلسفية وميتافيزيقية تغيرت دلالاتها عندما دخلت في بناء علمي، ولذا فمن الصعب وضع حد فاصل وواضح بين العلم واللاعلم كماهيتين مستقلتين". (البعزاتي، 1999، 112)، ومن ثم فلا مجال للحديث عن القطيعة الإبستمولوجية بين المعارف العلمية والمعارف العامية أو القبل علمية.

إن المعرفة العلمية هي معرفة تشكلت كغيرها من المعارف الإنسانية ضمن مسيرة تاريخية وحضارية، وتضمنت الكثير من الفروض الميتافيزيقية والملامح الإيديولوجية والدينية التي هي من صميم الفكر الإنساني، يقول فييرابند: "ليست هناك حجة قطعية نهائية تثبت أفضلية المعرفة العلمية وامتيازها على الأشكال الأخرى للمعرفة الإنسانية، .... فما يجعل تفوّق العلم عن باقي المجالات المعرفية الأخرى أمرا بديهيا، مبعثه خطأ فادح يتمثّل في أنّنا نفاضل بين العلم، وبين غيره من المجالات على أساس معايير العلم ذاته كالموضوعية، والصدق، واليقين والمنهج العلمي." (فيرابند، ب،2000، 121).

هكذا أسفرت فلسفة علم ما بعد الوضعية من خلال تحطيمها لدغما المنهج وتجاوزها لمفهوم الموضوعية الجامدة عن أنسنة الظاهرة العلمية، أي أن العلم ظاهرة إنسانية لها أبعادها الحضارية والاجتماعية والثقافية والتاريخية وعلى رأس هذه الأبعاد يأتي النسق القيمي.

ولم يقتصر هذا التحول من سؤال المعرفة إلى سؤال القيمة (في النظر إلى البعد الإنساني والقيمي للعلم) على فلسفة العلوم الطبيعية بل امتد إلى مجال فلسفة العلوم أيضا، فقد ارتبط البحث في صورته الإبستمولوجية في العلوم الإنسانية في بدايات نشأتها وانفصالها عن الفلسفة بمشكلات الصدق والصواب والدقة واليقين والموضوعية، والمنهج العلمي، وبإمكانية دراسة الظاهرة الإنسانية دراسة علمية تجريبية، وقد كان هدف العلوم الاجتماعية والإنسانية بمختلف فروعها الاقتداء بنموذج العلوم الطبيعية وبالمنهج التجريبي لتحقيق العلمية، وبهذا سادت في حقل الدراسات الاجتماعية والإنسانية مقولات **تشييئة** الظاهرة الاجتماعية، **وتقنين** السلوك الإنساني، والموضوعية، والحياد القيمي، التي قام عليها علم الاجتماع التجريبي(الوضعي) مع "دوركايم" و"اوجست كونت"، وعلم النفس التجريبي مع المدرسة السلوكية التي جعلت من البيئة الخارجية (أي مثيرات العالم الخارجي)، العامل الضابط للسلوك، فالسلوك الإنساني ينحل في النهاية إلى

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

مجموعة من ردود الأفعال (مثيرات استجابات) قابلة للملاحظة، تغنينا عن أخذ أي معايير أخرى بعين الاعتبار، وقد ساد هذا التوجه الوضعي التجريبي معظم تخصصات العلوم الإنسانية على غرار علم التاريخ، وعلم السياسة، وعلوم التربية...لكن التطورات التي تشهدها مختلف فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية تؤكد العودة القوية للقيم، بعد سيطرت مقولات الموضوعية و"الحياد القيمي"على مناهج النظر والتعامل مع الظواهر الإنسانية والاجتماعية المختلفة، وقد تجلت هذه العودة للقيم في مجال علم النفس في ظهور ما أصبح يعرف بعلم النفس الإنساني الذي من سماته، الأساسية التركيز على الشخص الإنساني، وعلى الفرد في تفرُّده وكلّيته، وعلى أهمية العلاقات بين البشر في تفتُّح الشخصية، وعلى حرية الإنسان البسيكولوجية، وفي علم التاريخ ظهور النزعة التاريخية في مقابل النزعة الوضعية، والمنهج الحدسي الذي يفرض على المؤرخ التعايش مع الظاهرة والأحداث التي يؤرخ لها وتجاوز التفسير الأحادي، وقد عرف علم السياسة في تطوراته الأخيرة الاهتمام بالدراسة العلمية للقيم من حيث هي أساس السلوك السياسي، وذلك من خلال إعادة تعريف محتواها ونشأتها وتطورها عبر مراحل التاريخ، كقيم الحرية والعدالة والسلطة والمصلحة والصراع والقوة، وتأثير هذه القيم في الخطاب السياسي الغربي وغيره.

إن هذه العودة القوية للقيم غير المعرفية في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية تؤكد أن مقولات الموضوعية والحياد القيمي هي مقولات سياقية ظهرت في الفكر الغربي حينما حل العلم الحديث محل الدين واللاهوت الغربي في معرفة العالم، لكن هذه المقولات قد عبرت من زاوية أخرى عن فشل العلم الوضعي (الحديث) في العلم الاجتماعي في أن يكون له دور قيمي وأخلاقي مما جعله يقتصر على الأبعاد العملية والسلوكية، فلم يحقق نجاحًا إلا كمشروع إمبريقي كمي يربط المعرفة بالحدث باعتبار أن الأخير المصدر الوحيد للحصول على المعرفة.

3- نتائج الدراسة

يكشف هذا الخطاب المعرفي الجديد لفلاسفة علم ما بعد الوضعية عن عمق التحولات المعرفية التي عرفتها فلسفة العلم المعاصرة والتي يمكن أن نجملها في النقاط التالية:

ـلقد أدى الاهتمام بالنظرة الخارجية للعلم، وربط فلسفة العلم بتاريخ العلم إلى إعادة ربط الصلة بين العلم والفلسفة والأخلاق والاجتماع والدين، بعد أن تم الفصل بينها في مرحلة التأسيس الأبستمولوجيا للعلم.

لقد تم تجاوز التصور الكلاسيكي القائم على النظرة الداخلية للعلم، أي بوصفه فاعلية تخصصية مستقلة، إلى الاهتمام بالنظرة الخارجية للعلم، أي بوصفه نشاطا إنسانيا يتأثر بأبعاد الحضارة الإنسانية ويؤثر فيها، فإغفال العوامل الاجتماعية والإنسانية والثقافية في تفسير نشأة وتطور العلم، هو تبرير لتصور معين للعلم وهو التصور الوضعي الغربي الذي ارتبط ظهوره بوضع

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

تاريخي معين، وإقصاء لمختلف البدائل المعرفية غير الغربية ومساهمتها في تشكيل الحضارة وتقدم العلم.

4- خلاصة البحث :

لاشك أن هذه التحولات التي عرفتها فلسفة علم ما بعد الوضعية وما ارتبط بها من إشكاليات، قد أدت إلى إثراء مجال البحث، وكان من نتائجها فتح المجال لظهور تخصصات معرفية جديدة منها علم اجتماع المعرفة، والدراسات الثقافية للعلم، التي تركز على دور العوامل الأيدولوجية والدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية للعلم، إذ لم تعد هناك حدود واضحة بين الإقرارات العلمية والمزاعم الدينية والأيديولوجية والسياسية والاقتصادية، بل لم تعد هناك قيمة للتساؤل أين ينتهي العلم، وأين تبدأ السياسة أو الاقتصاد أو...،ومنه بات من الصعب التمييز بين ما هو عقلاني في العلم، وما هو لا عقلاني.

لم يعد تاريخ العلم تاريخا للخرافات والأساطير والأخطاء التي تجاوزها العلم في مسيرته التقدمية بل أصبح "تاريخا قابلا للتأويل والمراجعة من أجل فهم التركيب الفعلي للعلم، ولهذا كان دعوة فلاسفة علم **ما بعد الوضعية** إلى ضرورة إعادة الاعتبار للتقاليد والثقافات والمعارف الإنسانية الأخرى غير العلمية، فإسهامات هذه الثقافات تمثل صرحا معرفيا لا يمكن إغفاله في نشأة وتطور العلم والمعرفة الإنسانية.

- المصادروالمراجع

- البعزاتي، ب. (1999). الاستدلال والبناء (الطبعة الأولى). الرباط، المغرب: دار الأمان للطباعة والنشر والتوزيع.
- بوبر، ك. (2001). منطق الكشف العلمي (الطبعة الأولى). الإسكندرية، مصر: دار المعرفة الجامعية.
- جي، آ. (د ت). الوضعية المنطقية. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان: دار الأفاق الجديدة.
- عوض، ع. (2000). الإبستمولوجية بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز (الطبعة الأولى). الإسكندرية، مصر: منشأة المعارف العامة.
- فيرابند، ب. (2000). العلم في مجتمع حر (الطبعة الأولى). مصر: المجلس الأعلى للثقافة.
- كارناب، ر. (1993). الأسس الفلسفية للفيزياء (الطبعة الأولى). بيروت، لبنان: دار التنوير.
- كون، ت. (1992). بنية الثورات العلمية. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- ماهر، ع. (1985). نظرية المعرفة العلمية (الطبعة الأولى). بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
- ماهر، ع. (1984). الاستقراء العلمي. الإسكندرية، مصر: دار المعرفة الجامعية.
- محمود، ز. (1958). نحو فلسفة علمية (الطبعة الأولى). مكتبة الأنجلو مصرية.
- محمود، ز. (1987). موقف من الميتافيزيقا (الطبعة الثالثة). القاهرة، مصر: دار الشروق.
- يفوت، س. (1982). فلسفة العلم المعاصرة ومفهومها للواقع (الطبعة الاولى). بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- يفوت، س. (1989). العقلانية بين النقد والحقيقة (الطبعة الثانية). بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

***- المراجع باللغة الأجنبية**

- Feyerabend, p. (1979). Contre la méthode, esquisse d'une théorie anarchiste de la connaissance (1er ed.). Paris: seuil.

- Feyerabend, p. (1981). **Explanation, reduction and empiricism (1s ed).** Cambridge University press.